بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 53 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:20\04\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

قال تبارك وتعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرِ﴾.

هذه الآية المباركة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآيات المتقدمة عليه، فبعد تلك العجائب الثلاث:

العجيبة الأولى: إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل.

العجيبة الثانية: تسخير الشمس والقمر.

العجيبة الثالثة: وهي عجيبة العجائب، أن أفعالكم في حركة الزمان لا تخفى على الله سبحانه؛ لأن الله بما تعملون خبير.

بعد العجائب الثلاث القريبة، وإلا تقدمت سابقاً عجائب متعددة من تسخير السماوات والأرض، ومن إسباغ النعم على بني البشر ظاهرة وباطنة.

والآن جاء بشكل قاطع ليقرر حقيقة في غاية الأهمية: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في هذه الجملة الملفت للنظر فيها استعمال اسم الإشارة الذي للبعيد ﴿ذلِكَ﴾ والأمر الثاني الإتيان بضمير الفصل ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الضمير الذي أطلق عليه علماء البصرة اسم ضمير الفصل وعلماء الكوفة اسم ضمير الاعتماد.

بالنسبة لاسم الإشارة الذي للبعيد؛ نعرف أنه في الغالب عندما لا يكون هناك مشار إليه حسي كما قيما نحن فيه يكون ذلك للتعظيم، وأما ضمير الفصل في هذه الآية جيء به للحصر والقصر ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ بمعنى أن غيره ليس بحق، والجملة التي فيها قصر -كما قرأنا في علوم الأدب- هي أيضاً تشتمل على إيجاز؛ لأن جملة الحصر والقصر ترجع إلى جملتين: الله حق، وغيره ليس بحق، أي: غيره باطل. فبدل أن تعبر الآية لتفيد هذا المعنى بجملتين عبرت بجملة واحدة استعملت فيها أسلوب الحصر

والقصر. زيد هو الرجل، أي: غيره ليس برجل، وهنا الحصر مبالغة، بينما في الآية الشريفة حصر على وجه الحقيقة لا على وجه المبالغة.

فما له ثبات في صفحة الوجود ليس إلا الله، كل ما هو غير الله ليس له ثبات، وهذا التجربة أمامك، دليل الحدوث التغير، يوم أمس لم تكن شجرة واليوم هناك شجرة، هذا الحدوث والتغير هو عدم الثبات، وعدم الثبات لا بد أن يستمد وجوده من الثابت.

﴿ذلِكَ﴾ أي: كل هذه العجائب والغرائب التي تلوناها على مسمعك أيها الإنسان، وهذه الخالقية للباري تبارك وتعالى والربوبية والتدبير منشؤها أنه لا حق سواه، فإذا لا حق سواه، فلا بد لما سواه أن يستمد منه ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَميد﴾[1] هنا وإن ذكر الناس لكن في واقع الأمر كل شيء هو مفتقر إلى الله، كل ما دون الله يفتقر إليه، فحقيقته تبارك وتعالى حقية محضة لا يشوبها بطلان، ولا يشوبها نقص، فتشتمل على صفات الجمال والجلال، سواء التي ذكرناها سابقاً من ﴿اللَّهَ سَميعٌ بَصير﴾ و﴿عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُور﴾ و﴿اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبير﴾ و ﴿الْغَنِيُّ الْحَميد﴾ أو غير ذلك من الصفات، حقانيته المطلقة التي لا يشوبها نقص ولا بطلان تقتضي أن يكون مجمعاً للفضائل، وفي الوقت نفسه تقتضي أن لا تكون زائدة على ذاته، وإلا لاحتاجت ذاته إليها، فلا يكون حقانية محضة.

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وكان بإمكانه أن يقول وغيره باطل، لكن عبر بهذا التعبير بأبلغ وجه، فبعض الأحيان يتحير البليغ، مهما أبدع في التعبير يجد أن تعبيره ناقص ولابد أن يعود متطئطئاً ليقتبس من الله سبحانه وتعالى ويعبر بالتعبير ذاته.

كان يمكن أن يقول ذلك بأن الله هو الحق وأن غيره باطل، فتكون عامة، لكنه قال: ﴿وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ﴾ عبر عن تلك الجملة التي لم يذكرها بأبلغ وجه؛ لأنه إذا كان من تدعونه باطلاً، والذي أنت تعتبر أن له مقاماً فوقك؛ لأني أعبده، فإذا هذا الذي أعبده، وهذا الذي أستعين به، وهذا الذي أتوسل إليه، إذا كان باطلاً فمن باب أولى أن يكون غيره باطلاً. فعبر عن هذا العموم بأبلغ وجهه.

[1] فاطر 15

﴿وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ﴾ لم يقل غيره الباطل، جاء بالفعل الذي يقوم به الإنسان غافلاً عن عظمة الله سبحانه وتعالى، وغافلاً عن حقانية الله، أفأفضل من أن يقول وغيره باطل، الذي تدعون يشعرك بالتقصير، يشعرك بالنقص، أنه على الرغم من ثبوت حقانيته التي لا يشوبها شيء، الحقانية المطلقة، مع ذلك ترى هذا الإنسان المسكين يدعو من دونه.

وهذا مراتب، أي: ليس إلا ما يدعو من دونه أن أضع صنماً في بيتي وأسجد له وأركع، في كثير من أعمالنا هناك دعاء من دونه، لابد من التوحيد في التوكل، والاستعانة، والعبادة، والخالقية.

ليقول بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ عاد الذيل إلى الصدر، عاد المنتهى إلى المبدأ، إذا كان هو الحق الذي لا يشوبه شيء فتجتمع فيه الصفات السلبية والصفات الثبوتية، أي: الجلال والجمال؛ لأنه الحق، لعلك لا تفهم ذلك من الحقانية، فكررتها لك بقولي -هكذا يريد أن يقول لنا- ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالي الذي يجل عن النقص، أي: الصفات السلبية، و﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي مهما تصورت من شيء هو أكبر منه، فهو الجمال المطلق، وهذا تفصيل لقوله: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فرجع المنتهى إلى المبدأ ورجع المبدأ إلى المنتهى.